

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## ٩٤ - الشرح

مكية . وقيل : مدنية ، وهو الأقوى عندي . فإن استقرار هذه النعم المعدودة فيها ، إنما كان بالمدينة المنورة ، كما لا يخفى . وآيها ثمان .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] ( أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ )

[٢] ( وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ )

[٣] ( الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ )

[٤] ( وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ )

« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » أى : ألم نوسعه بإلقاء ما يسره ويقويه ، وإظهار ما خفي عليه من الحكم والأحكام ، وتأبيده وعصمته ، حتى علم ما لم يعلم وصار مستقراً بالحكمة ووعاء حقائق الأنبياء ، والهزمة لإنكار النفي . ونفى النفي إثبات . ولذا عطف المثبت عليه . وأصل الشرح بسط اللحم ونحوه ، مما فيه توسيع مستلزم لإظهار باطنه ، وما خفي منه . استعمل في القلب الشرح والسعة ، لأنه محل الإدراك لما يسرّ وضده . فجعل إدراكه لما فيه مسرة يزيل ما يحزنه ، شرحاً وتوسيماً . وذلك لأنه بالإلهام ونحوه ، مما ينفس كربته ويزيل همه ، بظهور ما كان غائباً عنه وخفياً عليه ، مما فيه مسرته . كما يقال ( شرح الكتاب ) إذا وضحه . ثم استعمل في الصدر الذى هو محل القلب مبالغة فيه . لأن اتساع الشيء يتبعه اتساع ظرفه . ولذا تسمع الناس يسمون السرور بسطاً . ثم سموا ضده ضيقاً وقبضاً . وهو من المجاز المتفرع على الكفاية بوسائط ، وبعد الشروع زال الخفاء وارتفعت الوسائط - هذا ما حقه الشهاب . « وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ \* الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ » قال الشهاب : الوزر الحمل الثقيل . ووضعها : إزالته عنه . لأنه إذا تعدى بـ ( على ) كان بمعنى التحميل . وإذا تعدى بـ ( من ) كان بمعنى الإزالة . والإنقاض : حصول النقيض وهو صوت فقرات الظهر . وقيل : صوت الجمل أو الرجل

أو الركوب إذا ثقل عليه . فالإنقراض، التثقيب في الحمل حتى يسمع له تقيض، أى صوت، كما قاله الأزهري .

وقال ابن عرفة: هو إئثار يجعل ما حمل عليه نقضاً . أى مهزولاً ضعيفاً . وقد مثل بذلك حاله صلوات الله عليه ، مما كان يثقل عليه وينممه من قلة المستجيبين لدعوته، وضعف من سبق إلى الإيمان به ، وشيوع الشرك والضلال في جزيرة العرب ، وقوة أهلها . ووضع عنه هو كثرة من آمن بعده ، ودخولهم في دين الله أفواجا ، وقوة أتباعه وانحساء الشرك والجاهلية من الجزيرة، وذل أهلها بعد العز، وانقيادهم بعد شدة الإيذاء . وقيل : الآية كناية عن عصمته وتطهيره من دنس الآثام كقوله<sup>(١)</sup> ( لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ) . والوجه الأول أقوى ، وفي الآية ، على كلِّ ، استعارة تمثيلية . والوضع ترشيح لها «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» أى بالنبوة وفرض الاعتراف برسالاته وجعله شرطا في قبول الإيمان وصحته . وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة . فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادى بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وعن مجاهد: أى لا أذكر إلا ذكرت معي . قال الشهاب وهذا - أى المأثور عن مجاهد - إن أخذ كناية خالف الواقع . فإنه كم ذكر الله وحده ! وكم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وحده ! وإن عين موضعاً فهو ترجيح بلا مرجح . وإن جمعت القضية مهملة ، فلا يخفى مافى الإهمال من الركائز .

قال : وقد أمعنت فيه النظر فلم أر ما يثلاج الصدر ، ويرد السائل غير صفر ، حتى لاح لي أن الجواب الحق أن يقال : الذكر محمول على الذكر في مجامع العبادة ومشاهدتها . فإن ذكره ﷺ مقرون بذكره فيها في الواقع في الصلوات والخطب . فلا ترى مشهداً من مشاهد الإسلام

(١) [ ٤٨ / الفتح / ٢ ] .

إلا وهو كذلك. فلا ينفك ذكره ﷺ عن ذكره تعالى في يوم من الأيام، ولا ليلة من الليالي بل ولا في وقت من الأوقات المعتدّ بها ، فتتجه السكّاية. فإن قلت: من أين لك هذا التقييد، فهل هو إلا ترجيح من غير مرجح؟ قلت: المقام ناطق بهذا التقييد. فإن المراد التنويه بذكره ﷺ وإشاعة قدره، الدال على قربته ﷺ من ربه، كقرب اسمه من اسمه، وإنما يكون هذا بذكره في المحافل والمشاهد والجوامع والمساجد. وأى إشاعة أقوى من الأذان؟ لاني الأسواق والطرق التي يطرح فيها كل ذكر.

ثم قال: واعلم أن تحقيق هذا المقام ما قاله الإمام الشافعيّ في أول (رسالته الجديدة) وبينه السبكيّ في تعليقه على الرسالة فقال رحمه الله تعالى:

قال الإمام رضى الله تعالى عنه عن مجاهد في تفسير الآية: لا أذكر إلا ذكرت معي: أشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمداً رسول الله. قال الشافعيّ: يعنى ذكره عند الإيمان بالله والأذان، ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية. قال السبكيّ: هذا الاحتمال من الشافعيّ جيد جداً. وهو مبني على أن المراد بالذكر، الذكر بالقلب، وهو صحيح. فعلى هذا يعم. لأن الفاعل للطاعة أو الكفّ عن المعصية امتثالاً لأمر الله تعالى به، ذاكر للنبي ﷺ بقلبه، لأنه المبلغ لها، عن الله. وهذا أعم من الذكر باللسان، فإنه مقصور على الإسلام والأذان والتشهد والخطبة ونحوها. قال الشافعيّ: فلم تُتمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنّت، نلنا بها حظاً في دين أو دنيا. أو رفع عنا بها مكروه فيهما أو في واحد منهما، إلا ومحمد ﷺ سببها. فعلم من هذا أنه إن أبق العموم والحصر على ظاهره، حمل الذكر على الذكر القلبيّ فيشمل كل موطن من مواطن العبادة والطاعة، فإن العاقل المؤمن إذا ذكر الله، تذكر من دل على معرفته وهداه إلى طاعته، وهو رسول الله ﷺ، كما قيل:

فأنت باب الله. أى امرئ أتاه من غيرك لا يدخل؟

ولك أن تقول: المراد برفع ذكره تشریفه ﷺ ، بمقارنته لذكره في شعائر الدين الظاهرة، وأولها كلتا الشهادة، وهما أساس الدين ثم الأذان والصلاة والخطب. فالحصر إضافي . انتهى كلام الشهاب . وقوله تعالى :

التقول في تأويل قوله تعالى :

[٥] ( فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا )

[٦] ( إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا )

[٧] ( فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ )

[٨] ( وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب )

« فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » إشارة إلى أن الذي منحه، صلوات الله عليه، من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر، بعد ضيق الأمر واستحكام حلقات الكرب في أول السير، كان على ما جرت به سنته تعالى في هذا النوع من الخليقة . وهو أن مع العسر يسراً . ولهذا وصل العبارة بالفاء التي لبيان السبب. (وأل) في (العسر) للاستعراق ولكنه استعراق بالمعهود عند مخاطبين من أفراده أو أنواعه . فهو العسر الذي يعرض من الفقر والضعف وجهل الصديق وقوة العدو ، وقلة الوسائل إلى المطلوب . ونحو ذلك مما هو معهود ومعروف . فهذه الأنواع من العسر مهما اشتدت ، وكانت النفس حريصة على الخروج منها طالبة لكشف شدتها ، واستعملت من وسائل الفكر والنظر والعمل ما من شأنه أن يمدد لذلك في معروف العقل ، واعتصمت بعد ذلك بالتوكل على الله حتى لا تضعفها الخيبة لأول مرة ، ولا يفسخ عزيمتها ما تلاقيه عند الصدمة الأولى ، فلا ريب في أن النفس تخرج منها ظافرة . وقد كان هذا حال النبي ﷺ . فإن ضيق الأمر عليه كان يحمله على الفكر والنظر حتى آتاه الله ما هو أكبر من ذلك، وهو الوحي والنبوة . ثم لم تسكس مقاومات قومه شيئاً من عزمه . بل مازال ياتمس

الغنى في الفقر، والقوة في الضعف، حتى أوتي من ذلك ما زعزع أركان الأكامرة والقياصرة، وترك منه لأمته ما تمتعت به أعصاراً طويلاً. أفاده الإمام رحمه الله .

لطيفة :

تنكير (يسراً) للتعظيم . والمراد يسر عظيم وهو يسر الدارين . وفي كلمة (مع) إشعار بغاية سرعة مجيئ اليسر، كأنه مقارن للعسر . فهو استعارة، شبه التقارب بالتقارن، فاستمير لفظ (مع) لمعنى (بمد) . وقوله تعالى «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» تكرير للتأكيد، أو عِدَّةٌ مُسْتَأْتَمَةٌ بأن العسر مشفوع بيسر آخر كشواب الآخرة . وعليه أثر<sup>(١)</sup> : (لن يغلب عسر يسرين) فإن المرء إذا أعيد يكون الثاني عين الأول، سواء كان معهوداً أو جنساً. وأما المنكر فيحتمل أن يراد بالثاني فرد مغاير لما أريد بالأول «فَإِذَا فَرَغْتَ» أى من عملٍ من أعمالك النافمة لك ولأمتك «فَأَنْصَبْ» أى خذ في عمل آخر واتعب فيه . فإنك تجد لذة الراحة عقب النصب بما تجنيه من ثمرة العمل ، قاله الإمام «وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ» أى في الدعوة إليه . أى لا ترغب إلا إلى ذاته ، دون ثواب أو غرض آخر ، لتكون دعوتك وهدايتك إليه ، قاله القاشاني .

وقال ابن جرير<sup>(٢)</sup> : اجعل نيتك ورغبتك إليه دون من سواه من خلقه . إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم في حاجتهم إلى الآلهة والأنداد ، والأظهر عنسدى ، اعتماداً على ما صححناه من أن الآية مدنية وأنها من أواخر ما نزل - أن يكون معنى قوله تعالى

(١) هذا الأثر أخرجه الإمام مالك في الموطأ في : ٢١ - كتاب الجهاد، حديث ٦ (طبعتنا) ونصه : عن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم . فكتب إليه عمر بن الخطاب : أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة ، يجعل الله بعده فرجاً ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ... الخ .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٣٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

( فَأِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ) أى فرغت من مقارعة المشركين ، وظفرت بأمنيتك منهم ،  
بمجيء نصر الله والفتح ، فانصب فى العبادة والتسبيح والاستغفار ، شكراً لله على ما أنعم ،  
وارغب إليه خاصة ابتغاء لمرضاته . فتكون الآيتان بمعنى سورة ( إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ )  
ثم رأيت ابن جرير نقل مثله عن ابن زيد عن أبيه قال : فإذا فرغت من الجهاد ، جهاد العرب  
وانقطع جهادهم ، فانصب لعبادة الله وإليه فارغب . وهو ظاهر . نعم لفظ الآية عام فيما أثناه  
جميعه . إلا أن السياق والنظائر - وهو أهم ما يرجع إليه - يؤيد ما قاله ابن زيد واعتمدهنا .  
والله أعلم .